ولما لم يمنعهم ذلك عدلوا الى اغتالهم واهانتهم وربما ثاروا عليهم وذبحوهم وما زالوا يدافعونهم عن بلادهم وهم يدفعون عليها ويزاحمون فقراءها حتى اضطرت حكومة الولايات المتحدة ان تعقد وفاقاً مع حكومة الصين بمنع استقرار الصينيين في تلك الولايات وفي جزائر الفيليبين وضيقت عليهم حكومة هولندة في الجاوي فهي لا تأذن لهم في الاقامة الاَّ في محالّ معينة ولا تعاملهم الا بالعنف ومع كونهم مدّوا خطالاً كثيرًا وجعلوا مرتفقاً كبيرًا في غربي استراليا وفي مستعمرة سنغافورة الانكليزية فتجد القوم يكرهون جوارهم ويسمون في جلائهم وما ذاك الاَّ من صعوبة مياراتهم وان ليس للغربيين صبرهم ولا ثباتهم ولا قناعتهم ولا رضاهم من العيش بالادنى. ولرجال العمل عندهم جمعيات ونقباء كما في اوربا بل اكثر مما في اوربا ولهم خضوع تام لنقبائهم مما يسهل عليهم طرق النجاح والحاصل ان الصينيين وان اعوزهم الاقدام وعلو الهمم فعندهم الثبات والبصر بالصنائع وهم امة صناعية فطرةً وجبلةً ويبعد ان يظلهم الاوربيون في هذه الشؤون او ان ينالوا معهم سبقاً. كنت اتحادث في هذا الامر مع حضرة عباس افندي البهائي رئيس الفرقة البابية وهو من العقل والعلم وسمو المدارك بالمقام الذي لا يخفى فقال لي: ان اخذ الاوربيين للصين بالسيف امر غير صعب المنال وانما كان مقصد الاوربيين في التملك خارج بلادهم الكسب والتجارة والعمل والكسب مع امة كالصين صعب اذ لا يمضي مدة بعد اخذ الاوربيين للصين حتى يأخذ الصينيون جميع ما بايدي الاجانب من الصنائع

رواية تنكرد

للوزير الشهير اللورد بيكنسفيلد

الفصل السادس

اذا وقع القدر بطل الحذر. فان دوق بلامونت وزوجتهُ بذلا الجهد في وقاية ابنهما من المخاطر. وارسلا معهُ قائداً مجرّبًا لكي يدفع عنهُ كل مكروه لكن هذا القائد لم يكن معهُ في ساعة الحاجة اليهِ وارسلا معهُ طبيباً ماهرًا لكي يحميهُ من عوادي الادواء ويعالجهُ اذا مرض لكنهُ جرح واعتلَّ جسمهُ في برية قفراء ولا طبيب معهُ ولا سبيل الى العلاج كأن الانسان يفرُّ من المقدور والمقدور مدركهُ على حد ما قيل

طالمنْ حشاك فان دهرك موقع بك ما تخاف من الامور وتكرهُ
واذا حذرت من الامور مقدرًا وفررت منهُ فنحوهُ تتوجهُ

وقع تنكرد جريحًا في تلك القفار وجنود ابيهِ المعروفة بجنود الاعيان معتمدة سيوفها في وبلادها لا تدري من امرهِ شيئًا. وانطرح على فراش المرض وليس من يداويهِ من اطباء بلادهِ قد يفارق الحياة الدنيا وليس معهُ رجل من رجال الدين يقوي ايمانهُ و يعزز معتقدهُ

قال الخادم فريين لباروني بعد رجوعهِ من القدس اننا لم ندعُ احدًا من هؤلاء البرابرة يدنو من سيدنا الاَّ ذلك الشاب . فانتهرهُ ترومن وقال لهُ هذا برنس وقد قلتُ لك ذلك عشرين مرة و يسمونهُ هنا اميرًا ولهُ قصر يسكن فيهِ وقد طلب من سيدنا ان يزورهُ في قصرهِ

فقال فريين نعم وقد اعتنى بسيدنا اشد الاعتناء كل هذه المدة ولم يفارقهُ لا ليلاً ولا نهارًا

فقال باروني نعم عرفت ذلك هلموا ندخل الخيمة ودخل فرأى تنكرد ملقًى على ديوان مغطًى ببرنس من الحرير وهو اصفر الوجه جاحظ العينين

واسرَّ فريين في اذن باروني قائلاً انهُ لم ينم من حين اصيب بالحمى . وقال ترومن نعم وكان يتكلم عن نفسهِ دائمًا في اليومين الاولين ولكنهُ استكان امس قليلاً

فدار باروني الى وراء تنكرد وجلس وجسَّ نبضهُ بيدهِ وهزَّ رأسهُ فقال لهُ فريين أتظن انهُ قُطع منهُ الرجاء وقال ترومن أهكذا تنتهي حياة سيدنا بعد ان بلغ سن الرشد . فاشار اليهما باروني ليخرجا من الخيمة وجعل يفكر في ما يكون من امر الصيدوني اذا بلغهُ ان تنكرد جُرح ومات في القفر وكيف انهُ يقضي عنهُ (اي عن باروني) في المستقبل ولا يعود يشير على احد باستصحابهِ وقال في نفسهِ اواهُ لو كان عندنا شيء من الافيون حتى ننومهُ بهِ . ثم اخذ ينظر في وجههِ ورأى على شفتيهِ شيئًا من الزبد فمسحهُ وقال انهُ كثير التفكر والتأمل ولعلهُ يفكر اكثر من الصيدوني فهو قوي الفكر ورقيق القلب بخلاف الصيدوني فانهُ قوي الفكر ولكنهُ قاسي القلب هؤلاء يسودون المسكونة كبار العقول قساة القلوب الذين لا يؤثر الحب ونحوهُ في قلوبهم اما هذا الشاب فانهُ كبير العقل ورقيق القلب . اواهُ لو امكنني ان اشفيهُ من هذا المرض

وكان باروني يفكر بهذه الامور وهو جالس على البساط بجانب الديوان الذي عليهِ فخر الدين ثم سمع واحدًا ينادي باسمهِ هما فالتفت واذا فخر الدين وراءهُ دخل وهو يخاطب خطابًا اختلاسيًا فنهض واشار اليهِ فخر الدين ليخرج معهُ من الخيمة فخرج واذا بالفتاة التي أتت من القدس مع القافلة فقال لهُ فخر الدين اني أتيت بالسيدة حواء انرى سيدك لانها حكيمة ماهرة فقالت حواء قد انفع شيئًا سيف هذا القفر . فقال باروني لم يبقَ في قوس الرجاء الاَّ منزع واحد . فقالت أإلى هذا الحد . فقال نعم وازيد . فغاضت الدموع من عيني فخر الدين وجعل

يتوسل اليها لكي تداويهُ وتشفيهُ وهي تضع اصبعها على شفتيها لكي يسكت ثم جعلت تتكلم مع باروني بصوت منخفض وازاحت ستر الخيمة ودخلت فرأت تنكرد منطرحًا على الديوان ووقعت عينهُ على عينها حالما دخلت فاحدق بها والظاهر انهُ لم يعرفها لانها كانت لابسة لبس بنات البدو ثم ادار عينيهِ عنها وجعل يصرخ ويقول الملائكة تحرسني الملائكة تحميني . واشتدَّ انزعاجهُ وحاول رفع يدهِ المجروحة لكن باروني كان قد دخل وجلس بجانبهِ وامسكها بيدهِ ومنعهُ من رفعها فعاد الى الكلام عن الملائكة . فقالت حواء في نفسها انت ملاك من الملائكة ثم التفتت الى باروني واشارت اليهِ ليخرج معها من الخيمة فخرجا وتبعها فخر الدين وعيناهُ مغرورقتان بالدموع وجعل يعتذر لحواء عن بكائهِ بانهُ مسيحي رقيق القلب فقالت لهُ يا حبذا ولو كنتَ كذلك ما وصل احد منا الى هنا . ثم قالت لباروني اني اوافقك على لزوم الملوم لهُ . فقال باروني أوَلا امل بوجود شيء من الافيون هنا فقالت كلاَّ لان البدو لا يستعملونهُ حتى الآن من فضل الله . فقال فخر الدين انا امضي الى القدس وآتيكم بهِ فنظر اليهِ باروني مشمئزًا وقال لهُ اين نحن واين القدس فقال ولكنَّ عندي ناقة تسابق الرياح . فوضعت حواء يدها على كتفهِ من غير ان تنظر اليهِ كأنها تأمرهُ ليصمت وبقيت تكلم باروني وقالت لهُ رأيت وغن نازلون من المضيق نبات البنج على جانب الطريق وزهرهُ ابيض ضارب الى الصفرة وانا اعلم ان غلاية زهرهِ تفعل مثل الافيون ثم نادت جواريها ومضين ينتشرن عن هذا الزهر وبقي فخر الدين وحدهُ في الخيمة وجعل يهدس في ما يأول اليهِ امرهُ اذا شفي تنكرد وتمكنت عرى الصداقة بينهما وفي الاعمال العظيمة التي يفعلها بمساعدتهِ . ثم خطر لهُ انهُ هو سبب مرضهِ وتعريض حياتهِ للخطر فلعن مطامعهُ وسفاهة رأيهِ . ومضت ثلاث ساعات وهو بين اليأس والرجاء والشدَّة والرخاء الى ان رأى باروني راجعًا ويدهِ حقَّة فيها غلاية البنج فدخل الخيمة وداناها من فم تنكرد فشرب منها من غير كراهة كأنهُ لا يدري ما يفعل ولم تمض ساعة من الزمان حتى أغمض عينيهِ ونام واسرع فخر الدين واخبر حواء وكانت قد عادت الى خبائها في خيمة جدها

وغابت الشمس وانبسط نوار الشفق الذهبي على خرائب البتراء على مدافن موتاها وهياكل آلهتها وتنكرد لا يزال نائمًا . وعادت الجمال من المراعي وأوقدت النيران امام الخيام وتنكرد لا يزال نائمًا . ومضى المزيع الاول والثاني من الليل وتنكرد نائم وباروني وفخر الدين في خيمتهِ لا يفارقانها لحظة وكأنهما يعدَّان انفاسهُ . ومضى الليل كلهُ وهو نائم وبدت تباشير الفجر من غير ان يبدي حراكًا . وجسَّ باروني نبضهُ فلم يشعر بهِ ووضع فخر الدين خنجرهُ امام فيهِ فلم يرَ عليهِ اثر نفسهِ فتقطب وجه باروني وخرج فخر الدين وجعل يعدو الى خباء حواء فوجدها

جالسة صفراء الوجه منكسرة العين فقال لها على م ادراك صفراء فقالت ان مات هذا الامير لحقنا من موته عار لا يمحى ابد الدهر. فقال وكيف يكون حالي انا فاني آتيه في الارض مثل قايين او ادخل دير مار يوحنا واترهّب فيه وانقطع عن الدنيا . فقالت له اني ملومة مثلك ولكن لم ينقطع حبل الرجاء حتى الآن . ثم خرجت واتت معهُ الى خيمة تنكرد ودخل هو اولاً ثم ازاح لها النجف فدخلت ووقفا امام تنكرد وكان لا يزال نائماً وقد بدت على وجهه امارات الراحة والسكينة التامة فزاد جمالاً على جمال ورقةً على رقة حتى كأن وجههُ وجه ملاك فنظرت اليه حواء بعين ملؤها الحب والحنو فتحرك قليلاً ثم تنهّد وفتح عينيه وادارهما في ما حولهُ ثم قال "سيدة بيت عنيا"

الفصل السابع

بين بلاد مصر وبلاد العرب جبال صوانية كأن حمم البراكين كانت تتدفق في العصور الغابرة ثم أُمرت ان تقف بغتة فوقفت في مكانها وصارت منها تلك الجبال. وبينها اودية كثيرة غالبها قفر اجرد ولكن بعضها لا يخلو من الماء والمرعى بل قد تجد في الوادي عيناً ثرّاء ونخيلاً دانيَ التظوف . اما قنن الجبال فتطلُّ على جبال سيا وفريقية وبحريهما وعلى قنة منها دير وفوق الدير جبل سينا المشهور على قنتهِ خرائب كنيسة ومسجد — هيكلين لله بناها بنو اسرائيل وبنو اسمعيل لعبدوا فيهما اله العرب وقد خرب هذان الهيكلان كأنهما خجلا من القيام بين هياكل الطبيعة التي تناطح السحاب

وخيّم الليل وتلألأت الكواكب واذا بسائح ركع على قنة هذا الجبل ورفع عينيه الى قبة السماء وبسط يديه وجعل يتوسّل ويقول يا اله اسرائيل خالق الكون الذي لا يُدرَك كنههُ ولا يستقصى وصفهُ . أتيتُ هيكلك في هذه البلاد لكي اسكب امامك قلبي وما اشعر بهِ من الشدّة . لماذا تصمت لماذا لم يعد رسلك ينزلون الى الارض ليخبروا بمشيئتك . زال الايمان وضعف الرجاء وتولّى الناسَ القنوط وهم يشتون تحت احمال المشاق ويستغيثون بالهٍ لا يعرفونهُ. ان كان هذا الجبل المقدس لا يرى جلالك بعد الآن وان كان لاهوتك قد انقطع عن ارشاد الناس في سهول ارضك المقدسة وان كان الانبياء قد كفّوا عن التبشير والانذار فدع واحداً من الملائكة خدّام عرشك ينزل الى هذا العالم ليخبر الخلائق من وهدة اليأس"

فغطى الضباب وجه السماء وجرَّ ذيولهُ على الجبال والآكام وسقط السائح على الارض وغاب عن الصواب . ثم ظهر لهُ شبح في صورة انسان كبير الجسم معتدل القوام جاز غضاضة الصبا ولكن لم يخنهِ كرور الايام. وقور المنظر مهيب الطلعة واسع الجبهة فوق جبينهِ نجم مشرق

يزيد منظره عظمة وجلالاً وفي يدهِ صولجان من سعف النخل. فنظر الى السائح وقال له «يا ابن اوربا انا ملاك بلاد العرب الذي حارس هذه البلاد التي تسلّطت على العالم لان السلطة ليست بالسيف ولا بالترس بل بالعقائد الدينية والعقائد سامية المصدر في كل مكان ولكن العقائد التي اذاعها العرب انتهم من الله القدير من هذه البلاد خرجت الاديان التي تسود الدنيا

والبلاد التي اتيت منها وانت تنوح عليها الآن كانت حراجاً موحشة لما كانت قصور الملوك تبنى من ارز لبنان . لكن تلك الحراج اخرجت اممًا كثيرة ستنتشر في المسكونة كلها وتسود عليها وقد شاءت القدرة الالهية ان العقائد العربية الاصل تلاقي تلك الامم عند اول خروجها من حراجها وترشدها وتهديها . كل شيء بقضاء وقدَر فقد غلب القياصرة الدنيا لكي توضع شريعة سيدنا فوق عروشهم . ثم قام رجل من الجليل وكتب على جباه الذين قهروا القياصرة خلاصة ما وصلت اليهِ العقائد الدينية التي نشأت في هذه البلاد

لكن اوربا لا تزال تتمخض وقد ولدت ابناء كثيرين ملأوا السهول والوعور . وقد ثار ثائرهم في اوائل هذا القرن ونسيوا ما حلّ بهم من الشقاء الى العقائد الدينية التي انقذتهم من الشقاء فبعدوا عنها وزادوا شقاء وتلّوا آلهة أُخرى فعادوا بالفشل. ولا شيء يصلح فسدهم الفاسد غير الاصول الدينية التي نزعت منهم البربرية ولا يساوي الناس الاّ اذا خضعوا كلهم لله ولا يشعرون انهم كلهم اخوة الاّ اذا علموا ان لهم ابًا واحدًا في السماء . ولكن لما بعُد الانسان عن خالقهِ نمت بينهما بزور الشرور فنقصت كأس الحياة . فاليك عن الفلسفة التي تتوخى حل هذه المشاكل وعلّم الناس انهم متساوون في عين خالقهم ولا تخف ولا تجزع ولا تجبن أطلع ما تلهمك اياهُ نفسك

ثم قصف الرعد فافاق تنكرد من غيبتهِ ورأى الجبال حولهُ كالحرّاس والكواكب فوقهُ كالمصابيح ولم يرَ الملاك ولكن صوتهُ بقي يرنُّ في اذنيهِ . ثم نزل عن الجبل الى حيث كان رجالهُ بجانب الدير

الفصل الثامن

حوّاء في خدرها وجواريها معها يضربنَ العود وينشدنَ اشعارًا من قصة عنتر ومجنون ليلى وهي جالسة غائصة سيفي بحار الافكار تلعب بسبحة في يدها ولا تعي شيئًا . ما يشغل بالك ايتها الحسناء وما يخامر فؤادك من الهموم والغموم

بينما هي كذلك سمعت جدها يخاطب رجلاً آخر بصوت الغضب وهو يتوعّد ويتهدّد على غير عادتهِ والمتكلّم معهُ يترضّاهُ . ثم علا صياح الاثنين الاول يزأر كالاسد والثاني يصيح

كالديك ثم صمتا كلاهما او خرجا من الخيمة وابتعدا عنها فلم يعد صوتهما مسموعاً . فعادت حواء بافكارها الى ما كانت تفكر به وحينئذٍ سمعت صوت فخر الدين خارج خبائها يطلب ان يدخل ويراها . وقبل ان تأذن لهُ في ذلك دخل وهو احمر الوجه جاحظ العينين يكاد نَفَسهُ ينقطع من الحدَّة والغضب فارتمى على مقعد بجانبها وقال لها من يقول انني جبان ولكن كيف العمل وقد تجري الرياح بما لا تشتهي السفن . لا بدَّ من انك سمعتنا نتجادل ونتخاصم ولم اكن اعرفني من حدك ما رأيت منهُ الآن

حواء — ماذا جرى

فخر الدين — عليهِ ان يتعلَّم من محمد علي الذي اخلى سورية بعد ان ملكها . تلك خسارة لا التخلي عن غنيمة لم يصل اليها بعدُ

حواء — ألا يزال جدي يطلب الفكاك

فخر الدين — لا يزال وهو يطلب هذين العرشين بالحاحة

حواء — هذين العرشين ! مليونان من الغروش . اربعة آلاف كيس

فخر الدين — لا تزالين غلطانة مثل ابيك فقد نزَّلنا الشيخ من اربعة آلاف كيس الى الفين الف لهُ والف لي فالمبلغ المطلوب لهُ الآن الف كيس لاغير وقد عزمتُ ان استدينها منهُ

حواء — تستدينها منهُ !

فخر الدين — نعم استدينها منهُ اذ ليس لهُ حاجة الى النقود وانا ادفع لهُ ربًا ثلاثين في المئة اوفي بها ديوني في بيروت وطرابلس واللاذقية حيث ادفع اربعين وخمسين في المئة ربًا فاستفيد وافيدهُ ولو كان ابوكِ يُوفي ديوني كلها ويأخذ مني ثلاثين في المئة لا غنى هو والغناني عن الناس

حواء — أصحيح انك تدفع فوائد بهذا المقدار . ما ظننتُ ذلك قط وما ظننتُ انك مديون الى هذا الحد

فخر الدين — صدقيني انني لولا ديوني ما كنتُ انفع شيئاً لانني كسلان بالطبع ولا شيء يحثني على الاجتهاد الاَّ الشعور بانني مديون ومضطر ان اوفي ديوني او اوفي رباها على الاقل

حواء — اذا كان الامر كذلك فلا امل لك بالنجاح ابدًا لان الانسان لا ينجح وهو مغلول اليدين مثلك

فخر الدين — ولكن ديوني ليست شيئاً بالنسبة الى مقدرتي فاذا اردتِ الحكم على انسان لا تنظري الى ديونهِ فقط بل انظري الى مقدرتهِ ايضاً

حواء — ولكنني فهمت منك ان كل املاكك مرهونة

فخر الدين — املاكي! ما هي الاملاك ان مقدرة الانسان ليست باملاكه فقد يكون في رأسهِ فكر يساوي كل املاك الدنيا ولا سيما اذا كان عمليًّا

حواء — انا اعلم ان في رأسك افكارًا كثيرة ولكنني احسبها كلها نظرية فان كان فيها فكر عملي فهو غير ما اعهدهُ فيك وهو ما تحتاج اليهِ بالذات

فخر الدين — نعم لم يكن في رأسي فكر عملي ولكن صار فيهِ الآن والامور مرهونة باوقاتها

حواء — وما هو هذا الفكر العملي

فخر الدين — هو الثقة بما رآهُ هذا الامير الانكليزي في جبل سينا فانهُ جاء من هناك متغيرًا واراهُ عازمًا ان يسير في مقدمة هذه الثورة . وهو غير راجع الى القدس بل ذاهب معي الى قنوبين

حواء — لا بدَّ لهُ من مقاصد كبيرة على ما يظهر

فخر الدين — كيف تعرَّفت بهِ ياحواء ولم تخبريني قبل الآن

حواء — تعرَّفتُ بهِ!

فخر الدين — نعم فانهُ عرفك حالما فارقتهُ الحمى ثم عرفتُ منهُ انهُ رآكِ قبلاً ولكنني لم اعرف شيئًا آخر غير ذلك لانهُ قليل الكلام عن نفسهِ فتركتهُ يتكلم ساعات متوالية عن الايمان والحرب وبلاد العرب واما اذا كلمتهُ عن نفسهِ اوجز الكلام وصمت فهل عرفتهِ في القدس

حواء — التقيتُ بهِ اتفاقًا دقيقةً من الزمان في بيت عنيا ولم اسألهُ عن اسمهِ ولا هو اخبرني بهِ فكيف اقول لك اني تعرفت بهِ بل كيف اعرف ان الشخص الذي رأيتهُ اتفاقًا هو الامير الانكليزي الذي اسرتهُ

فخر الدين — كيف تقولين اني اسرتهُ وانا الذي انقذهُ من الاسر او سأنقذهُ قريبًا

حواء — اهتم بذلك الآن وبعد ان تنقذهُ وتخلص من هذا الشكل تنظر في امور اخرى

فخر الدين — هذا امرٌ هين وانا ادبر امر الشيخ وسأفتح لهُ بابًا واسعًا للغزو والسلب والنهب ولو قلتِ لي لما زرتكِ اخيرًا في بيت عنيا ان هذا الشاب كان عندكِ ما حدث شيء مما حدث

حواء — كيف عرفتِ انهُ كان عندي (قالت ذلك وقد علتها حمرة الخجل)

فخر الدين — لانني رأيتهُ آتيًا من عندك وظننت حينئذٍ انهُ واحد من الافرنج يفتش من قبر اليعازر

فقالت وجدتهُ في البستان فارسلت اليهِ بعض الخدم . قالت ذلك مضطربة وكان فخر

الدين قد وقف وجعل يمشي في الخيمة ذهاباً واياباً فقال لها سيتم كل شيء طبق المرام فان احد اصحابي في غزة يحتاج الى قافلة من الجمال فسأدله على جدك ليستأجر جماله بعشرة آلاف غرش فاسكنهُ بهذا المال وارجع انا وانتِ والامير الانكليزي الى القدس

حواء — انا غير راجعة الى القدس ولكن جدي سيرسلني الى الشام وابقى فيها الى ان امضي الى حلب . فانت ذلك وهي تشير الى زواجها المنتظر بابن عمها

فقطب جبين فخر الدين وقال لها عساها تخرب

وارادت حواء ان تغير الموضوع فقالت لهُ ان هذه التدابير متوقفة كلها على قبول جدي بترك اسيرهِ ولا اظنهُ يكتفي بعشرة آلاف غرش

فخر الدين — ما هي عشرة آلاف غرش انا ادفعها فائدة كل شهر الى رجل قبطي في بيروت ساضبط املاكهُ كلها حالما احكم الجبل . اما الشيخ فانهُ اذا رأى هذه النقود في جيبهِ قال رجالهُ عنهُ انهُ امتلك كنوز سليمان

حواء — عشرة آلاف غرش لا تكفي لابتياع الجمال لارملة سالم

فخر الدين — لا تتعبي رأسكِ بهذه الامور فان عند الشيخ جمالاً كثيرة وهو يعطيها منها وانا اعطيهِ اسلحةً بدلاً من جمالهِ

حواء — كيف تصل الاسلحة من قنوبين الى بلاد العرب

فخر الدين — شريف افندي في غزة وسالتقي بهِ هناك بعد قليل وآخذ منهُ خمسة آلاف بندقية فاعطي الشيخ خمس مئة بندقية منها

فنظرت اليهِ نظرة الاستغراب وقالت لهُ قد كفلتك عند شريف افندي لمدة ثلاثة اشهر فما امرهُ الآن

فاحمرَّ فخر الدين خجلاً وتلعثم لسانهُ عن الكلام ثم قال لها سامحيني يا حواء فقد كذبت عليكِ وانا معترف الآن بخطائي ولكن كيف العمل فانني تظاهرت بطلب مهلة ثلاثة اشهر خداعاً مني لكي لا تعلمي مقاصدي اما الآن فقد قضي الامر وجدكِ ينقل لنا البارود الى الجبل وانا ادفع لشريف افندي اربع مئة كيس او مئتي الف غرش

حواء — ومن اين لك هذه الدراهم

فخر الدين — ممن يقصد ان يقود هذه الحركة في امبا كلها ويوقد شعلة هذه النار لا يصعب عليهِ ان يدفع اربع مئة كيس وانا خاصتاً هذا الامير من دفع اربعة آلاف كيس فلا يثقل عليهِ دفع عشرها ثمن بارود تبقى لهُ

الفصل التاسع

ابلّ تنكرد وكلّم فخر الدين بما جعله يلحّ على الشيخ ليطلق سبيله على ما تقدم في الفصل السابق . ثم نهض من فراشه وحاول الخروج من خيمته فمنعه باروني . وكان الشيخ يودّ الرجوع الى بلاده من تلك المقاطعة ولولا مرض تنكرد والاختلاف على النكاك لرجع حالاً . وفهم باروني من بقاء حواء هناك وانطلاق فخر الدين بغتة ان السعي متواصل في ارضاء الشيخ واطلاق سبيل تنكرد. وقال له تنكرد "لقد اخبرني الامير امس انه يفضّ هذا المشكل بنفسه من غير ان يتعبنا ولا بدّ من اعطاء الدية لامرأة القتيل ومن ارضاء الشيخ بقليل من المال وانا واثق ان هذا الامير يدبر كل شيء بفطنته وبحكمة تلك الفتاة الحكيمة وانا اثق بها تمام الثقة"

باروني — انا اثق بها اكثر مما اثق به لاني اعرف من هو

تنكرد — مهما يكن امره فانا شاكر له كرم اخلاقه واراني احبه من غير التفات الى هذه الامور

باروني — وانا لا اعرف شيئاً يقال ضدّه ولقد اعتنى بسيادتك اعتناء شديداً ولكن الشهابيين لا يقرّ لهم قرار

تنكرد — هو كبير المطامع ولم يتدرّب كما نتدرّب نحن ولكنه ذكي نبيه جداً وله منصب سام وقد يكون له شأن كبير في المستقبل فيحرر بلاده

باروني — لا شيء يحرر بلاده لان اهاليها عبيد منذ ولادتهم

تنكرد — ليسوا عبيداً الآن لانهم اهل حرب وصدام ولكن ليس لهم قائد

باروني — ولا يكون لهم

تنكرد — كذلك العرب لم يكن لهم قائد قبيل ظهر النبي محمد فلما ظهر تغلبوا على الروم والفرس

باروني — لا اعرف من امور السوريين اكثر من ذلك ولكن الصيدوني حاول انهاض همتهم سنة ١٨٣٩ ولو كان فيهم حياة لظهرت ولكنه كان كالنافخ في رماد

تنكرد — على اي شيء كنتم تعتمدون حينئذٍ

باروني — على المال فان الصيدوني وعدهم ان يقرضهم مالاً كثيراً الى حد ثلاثة ملايين

تنكرد — المال لا يفعل شيئاً في هذه الاحوال اعتبر بامر اليونان . ولكن قد يستطيع الرجل ان يقف على جبل الكرمل ويقول ثلاث كلمات فتقبل عليه قبائل العرب ويصل بهم الى اسبانيا

باروني — ولكن ليس عندهم مدافع

تنكرد — وما هي حاجتهم الى المدافع فانهُ ليس في كل اسيا جنود منظمة الاَّ في بلاد الهند

باروني — ولكن دول اوربا تتداخل في الامر

تنكرد — ما علينا من دول اوربا اذا كان الله معنا . ومن ينهض الآن بدعوة دينية يستولي على اسيا كلها ومتى كانت اسيا معهُ لم يصعب عليهِ الاستيلاء على اوربا لانك اذا استثنيت انكلترا وفرنسا والبلدان التي على ضفتي الرين فاوربا منحطة مثل اسيا واكثر

وكان القمر هلالاً وقد امتزج نورهُ بما بقي من نور الشفق وهبَّ النسيم فلطَّف حرارة الهواء . فالتفَّ تنكرد بعباءتهِ ومشى هو وباروني نحو خيمة الشيخ فرأى رجال القبيلة في خرائب المشهد القديم وقد اجتمعوا حول شاعر يضرب على الرباب وينشد اشعار عنتر التي يصف بها ذهابهُ الى مدائن كسرى ودخولهُ معابد النيران وكان الرجال يسمعون انشادهُ صامتين حتى اذا انشد قولهُ

كأنَّ دماء الفرس حين تحادرت خلوف العذارى او قباء مدبَّجُ
فويلٌ لكسرى ان حللت بارضهِ وويلٌ لجيش الفرس حين اعجعج
واحمل فيهم حملة عنترية اردُّ بها الابطال في القفر تنتج

طابت نفوسهم وقالوا لهُ احسنت أحسنت لافضَّ فوك يا لعبس يا لعدنان . ثم انشد قول عنتر لما خرج الى العراق في طلب النوق العصافرية مهرًا لعبلة

جفرن العذارى من خلال البراقع احد من البيض الرقاق القواطع

وعاد الى انشاد القصيدة النونية التي مدح بها كسرى ابو شروانٌ ومطلعها

يا أيها الملك الذي راحاتهُ قامت مقام الغيث في ازمانهِ
يا قبلة القصاد يا تاج العلا يا بدر هذا العصر في كيوانهِ

فقال باروني لتنكرد ان هؤلاء الناس سمعوا انشاد هذه القصيدة الف مرة ولا يزالون يطربون بانشادها . ثم نادى واحدًا اسمهُ شداد بن عمرو وقال لهُ انك سمعت هذه القصيدة من حين كنت ترضع اما ملت منها . فقال كلاَّ ومن يمل من سماع الكلام الفصيح فان الطيب يبقى طيبًا ولو شممتهُ الف مرة . وظلَّ الشاعر ينشد والناس يصغون اليهِ لا تسمع لهم صوتًا الاَّ اذا قال كلمة هزل تضحكهم . ورأى باروني الشيخ هناك فاخبر تنكرد ولم يكن تنكرد قد زارهُ بعد شفائهِ فتقدم اليهِ وحيَّاهُ فرحب بهِ واجلسهُ على بساطهِ ثم وقف الشاعر عن الانشاد فجعل الرجال يتكلمون ويقولون ان كل ما قالهُ صحيح . وامر الشيخ ان يأتوهُ بالقهوة ثم اخرج كيسهُ من جيبهِ وفكَّهُ واعطى الشاعر درهمًا منهُ فقبَّلهُ شاكرًا وقال لهُ انهُ نظم قصيدة في

مدح حواء ورغب اليهِ ان يسمح لهُ بانشادها فانشدها وقد وصفها فيها وصفاً بديعاً وقال انها تركب الخيل العتاق وتخجل طلعتها البدر وكان يكنيها بابنة مالك جدها ولا يذكر اسم ابيها. وارسل الشيخ مالك الى حواء لتحضر وتسمع ما يقولهُ الشاعر في وصفها فحضرت وسمعت القصيدة وكان باروني يترجمها لتنكرد فسرَّ هو بها ايضاً وكان في عنقهِ سلسلة من الذهب فاعطاها للشاعر وحينئذٍ اشرأبت اليهِ الاعناق ونظرت اليهِ العيون لانهم لم يروا مثل هذا الكرم في حياتهم وقالوا حقاً هذا اخو الملكة

ثم انحل عقد الجمع ودنا تنكرد من حواء وقال لها لو كنتُ شاعراً لحاولت الاعراب عن شكري لسيدة بيت عنيا وعسى ان يكون باروني اخبرك اني كنتُ عازماً ان ازورك غداً لاقدم لكِ واجب الشكر ولم يكن يخطر ببالي ان اراكِ هذا المساء ولا انني استطيع الخروج من الخيمة فيهِ

فقالت ان هواء المساء لا يضرك لانهُ لطيف منعش

تنكرد — نعم واظنهُ سيتم الشفاء الذي نلتهُ على يدكِ

حواء — لم استعمل الاَّ وسائط بسيطة ولكنني اشكر الله لانها اتت بشيء من الفائدة ولا سيما لان مباحثك هذه تهمني جداً

تنكرد — أأخبرك الامير فخر الدين عما انا عازم عليهِ

حواء — اخبرني بعض الشيء وكنت قد لمحت ذلك من كلامك السابق في البستان

تنكرد — الكلام السابق في البستان في بيت عنيا نعم وقد حدث ذلك بالامس ولكنني اشعر كانهُ حدث منذ سنين كثيرة لكثرة ما مرَّ برأسي من العبر

حواء — ومن ذلك الوقت رأيتك تهتم بامر اسيا الصغرى

تنكرد — لماذا تصفينها بالتعيسة وهي بلاد الوحي والانبياء . والسبات الذي هي فيهِ الآن خير من يقظة اوربا كما ان ظن العاقل خير من يقين الجاهل

حواء — ولكن اوربا امتلكت بلاد الهند وبسطت سيادتها على بلاد فارس واسيا الصغرى وادَّعت انها انقذت بلاد الشام فكيف تقاومها

تنكرد — لا تقاوموها بل خلصوها

حواء — كيف نخلص غيرنا ونحن لا نستطيع ان نخلص انفسنا

تنكرد — خلصوها بالتعاليم الروحية كما فعلتم قبلاً . من جبل سينا ومن قرى الجليل ومن بلاد الحجاز من هذه البلاد انتشر الوحي الذي انار ظلمة الكون

حواء — هذه احلام كنت احلم بها . كلاَّ كلاَّ . هذا ضرب من المحال . اوربا متكبرة متعظمة تسلطت على الطبيعة فلم تعد تسمع للانبياء مهّدت الجبال وخاضت عباب البحار فهل يصدق اهلها بوجود قوة اسمى من قوتهم بشرية كانت او الهية

تنكرد — تسلطت على الطبيعة ! ما هو هذا التسلط وقد قلّت خيرات الطبيعة فيها والطبيعة نفسها قد زعزعت اركان ممالكها وقد تقوّض بنيانها . كلاَّ ايتها السيدة الكريمة اوربا ليست سعيدة بل فيها من الهموم والغموم ما ينخر عظامها ولو ظهرت بمظاهر النجاح والفلاح وعبثاً تطلق على جلبتها اسم التقدّم لان لسان الحال يسألها من اين هذا التقدّم والى اين فلا تحير جواباً وليس فيها الآن من يذكر اسم الله الاَّ الذين يدينون بالاديان الغريبة الاصل

الفصل العاشر

مضت اربعة ايام من حين ذهب نخر الدين . وكان تنكرد يرى حواء كل يوم في خيمة جدها ولم يجلسا وحدهما في الخيمة ولكنهُ كان يكلمها بالفرنسوية فلا يفهم احد ما يدور بينهما من الحديث وكان مدار كلامهما على المواضيع التي تشغل بال تنكرد فاعرب لها عن افكاره صريحاً لانهُ رآها حصيفة الرأي فاراد ان يقف على آرائها فوجدها تشاركهُ في ما يشعر بهِ ويُسرّ بما رأى فيها من الحب المفرط لشعبها والايمان الوطيد بحسن مستقبلهم . ولم تكن تطيل الكلام على ذلك ولكنها لم تكن تنفي عنهُ اذا لاحت لها فرصة للكلام . وتكلمت عن نخر الدين ايضاً واظهرت ميلها اليهِ ورغبتها في نجاحهِ واعتقادها بنبالة مقاصدهِ ولكنها ابدت اسفها على قلة صبرهِ وسرعة تقلبهِ وودّت ان يوفّق الى من يعينهُ في الرأي ويرشدهُ في المصاعب

وعاد نخر الدين بعد اربعة ايام ودخل خيمة الشيخ وكلمهُ طويلاً ثم خرج ممرَّ الوجنتين ورأى تنكرد جالساً امام خيمتهِ فسلم عليهِ واعتنقهُ وقال لهُ قد قضي الامر وصرتَ حرًّا

وقال الشيخ لرجالهِ ان يستعدوا للرحيل تلك الليلة وقرَّ قرارهم على ان يأخذوا حواء معهم ويوصلوها الى ابواب دمشق وان يمضي خمسة وعشرون فارساً منهم مع تنكرد ونخر الدين الى ابواب غزة . وحينئذٍ علت الجلبة في المحلة كلها

وشعر تنكرد بألم الفراق عن حواء ولم يصبر عليهِ الاَّ لانهُ كان قد وطن نفسهُ على أمور أُخرى رأى ان لا بدَّ منها وودَّ ان يمضي معها الى دمشق ولكن تدبير السفر لم يكن في يدهِ بل في يد نخر الدين فاضاعهُ مختاراً او غير مختار . وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب فركب الفرسان واشرعوا رماحهم ونهضت الجمال برحالها . وتقدّم الفتيان الى حيث كان الشيخ ومعهم نخبة جيادهِ وبينها فرس اسمها درة داريًّا وهي تكاد ترقص طرباً وخرج نخر الدين وتنكرد

لمشاهدة الركب وقدّمت الفرس الى حواء فاعتنقتها اولاً ثم علت صهوتها كأنها من فرسان الزمان ونظر اليها تنكرد فرأى قوامًا يخجل البان ووجنتين جمعتا بين الورد والياسمين وشعرًا وغرّة نفس يعجز عن تمثيلهما اشهر المصورين. وحاولت في اظهار البشاشة والسرور بكل جهدها فودعت فخر الدين بكلامها المألوف ثم التفتت الى تنكرد لفتت اضطرب لها فؤاده وقالت له اودعتك الله ايها السائح الكريم

الفصل الحادي عشر

بات فخر الدين وتنكرد تلك الليلة في القفر بين خرائب البتراء وقاما في الصباح وقصدا غزّة فوصلا اليها من غير مشقة وامضى تنكرد هناك سنداً لشريف افندي بثمن البنادق واجرة نقلها فحُملت على الجمال التي اتت معهما وأُرسلت الى جبال لبنان وأُرسل بعضها الى جهات حوران الى الشيخ مالك. واتى باروني بيخت تنكرد من يافا الى غزة وسار به وبالامير فخر الدين الى بيروت وصعد فخر الدين مع ضيفه وهو يفتخر به امام تجار بيروت وصيارفتها لكي لا يلجوا عليه في طلب ما لهم عنده من المال. حتى اذا وقعت عين تنكرد على لبنان دهش مما رآه من بديع المناظر فان قنن ذلك الجبل لا تغطيها السحب مثل قنن ارارات ولا تكتنفها الحراج مثل حمالايا ولا تنفجر البراكين منها مثل الاندس ولا تنصب عليها الشلالات مثل الالب ولكن اذا نظر المرء الى ما في لبنان من النبات والحيوان وتعدُّد اشكالها وانواعها وبديع المناظر التي تكتنفها فلا جبل في الدنيا يضاهيه او يقابل به

وقد هرب الناس من السهول الخصيبة من جور الحكام وظلم الولاة الى هذا الجبل فزرعوا فيه الكروم وتفيّأوا ظلال الاشجار وصيروه جنّة من الجنان. فترى القصور والاديرة على شواهقه والكروم والحقول على سفوحه ومكانة من شعوب مختلفة ومذاهب شتى لكنهم مشتركون في اباءة الضيم والبعد عن الذل والترفّع عن الطاعة للحكام. امراؤهم على سهوات خيولهم واساقفتهم ملوك في اديرتهم وشيوخهم حكام في خلواتهم

وكان رجال فخر الدين قد علموا بقدومه فنزلوا اليه الى بيروت بالخيول المطهمة فركب هو وتنكرد ومن معهما من الرجال وصعّدوا في الجبال الى ان اشرفوا على سهل البقاع والنهر الليطاني وهو كسيف يسل على بساط اخضر وفي وسط السهل اكمة تغطيها اشجار السنديان وعلى قمتها قصر قديم كثير الابراج من ايام العرب وهو قصر فخر الدين الذي دعا تنكرد اليه ولما وصلوا الى بابه فُتح لهم بالترحاب واذا فيه ساحة رحبة في وسطها فسقية كبيرة يتدفق الماء منها وحولها رواق من المرمر وفي الساحة كثيرون من الخدم والحشم وبعضهم بافخر الثياب ينتظرون